الموت الاول ...

« امضي الى غايتي
واعيني مغمضة
احمل في صرتي
خبزي ومجد ابي
وسيفي الابيضا »

بهذه الكلمات يفتتح عصام محفوظ كتابه الشعري الجديد « الموت الاول » ، فهو يحمل سيفه الابيض ليمشي بلا غاية وعلى رأسه تاج من الرماد . يعيد محفوظ تبويب دواوينه السابقة ، ليصل الى « الموت الاول » ، حيث لا قدرة على الشهادة ، سوى من طرف العالم ، من زاوية ضيقة مليئة بطعم الحصار . يقطع صوت الشاعر صوت الموت ، ولا وسيلة للوصول الى جسد الحبيبة سوى التلاشي امام عتبة الباب ، حيث يكثر المتفرجون ، على اخر مشاهد المسرحية .

يسير عصام محفوظ في تطوره الشعري ، ضمن خط بياني ، يبدأ بالايجاب ، — الالتفات نحو المشاكل اليومية — وينتهي بالسلب . وقصيدته في تطورها من المباشر ، الى الحلم الرمزي ، تصطدم بالسلب ، ولا تستطيع ان تقيم بينه وبين الايجاب نقطة تقاطع صراعية . لذلك تنحل اللغة في نسيج من الرؤية ، الذي ، حين يندمج بالحلم ، يتساقط على بوابة العالم ويداه تنزفان ولا وصول .

لم يخض عصام محفوظ رحلته هذه وحيدا . فلقد كان الطموح الاساسي لمجلة « شعر » هو محاولة دخول اوروبا على جواد عربي ، لكن الجواد ، ما لبث ان سقط في منتصف الطريق ، ودخل الشاعر عاريا من لغته ، ليكتشف العودة الى الموت لان الدخول ، دون انفجار الواقع العربي وتحوله، يبقى دخولا مستلبا ، وغير قادر على صنع مزيج جديد من الطموح والارض الواقعية .

واذا كانت « زليخة » بما تحمله من رائحة الارض، ورائحة الجسد ، تشكل محاولة الامتداد الرئيسية في شعر محفوظ صوب العالم ، وصوب علاقة الجسد بالارض ، المندمجة في سياق الحلم ، فان قصائد « الموت الاول » هي شهادة على استحالة هذه العلاقة لا سيما في قصيدتي : « فاصل احتفالي » و« القصيدة ذات الصوتين » :

— « لماذا لا تسمعني ؟ لماذا لا يسمعني احد ؟ سأقول لكم كل شيء

— لم يبق من دمك سوى قطرات . قل الكلمة اسرع

— العالم ينزلق على اطراف اصابعي سأقول الكلمة . ذلك من حقكم ؟

— اسرع . اسرع . اسرع .

— سأقول لكم . »

هكذا تنتهي القصيدة امام استحالة الحوار ولا معقوليته ، رغم ان الشاعر ، يستعين بقاموس الحب القديم ، ويعود الى المزامير وقصائد سليمان . لكن استحالة العلاقة ليست استحالة مجانية ، انها استحالة موضوعية كاملة . فالبقاء خارج الصراع ، ودخول اوروبا ، بعد ان سقط الجواد ، يفضي الى احساس عدمي ، يدمر الذات دون أن يمس الموضوع .

غير أن عصام محفوظ ، عندما تصدى لاعادة اختيار وجمع قصائده القديمة ، بعد أن أضاف اليها قصائد « الموت الاول » . انما ينطلق من زاوية مختلفة في تقييم دوره الشعري ودور مجلة « شعر » : « عبر تاريخنا اللغوي ، وهو جزء من تاريخ العالم كل عصر يمضي ، يأخذ معه تشابيه واستعارات وصورا ميتة ، وكل عصر يأتي يجلب معه تشابيه واستعارات جديدة اكثر تعقيدا وأشد غرابة بين المشبه والمشبه به في اللغة اليومية . ولغة الشاعر هي دائما طليعة هذا التغيير » . هذا الاصرار على تغيير مدلول الكلمات، واحداث ثورة في اللغة ، لم يقف الى جانبه اصرار اخر على تغيير العالم ، على الاندماج ضمن حركة تغيير جذرية للواقع العربي الذي يعيش الشاعر في وسطه . بل كان الشعر امتدادا مستقبليا ، يفتقد ارض المستقبل الواقعية . لذلك انحل الى الموت عند محفوظ . وانعطف نحو راحة الحب المتزاوج مع اسطورة المرأة بعد مزجها بالتوتر كما عند انسي الحاج . واصطدم يوسف الخال بجدار اللغة . فصمت . واذا كان لتجاوز ادونيس تجربة مجلة « شعر » من معنى ، فانه يقع في قدرة ادونيس على التغلغل في التراث والواقع في سبيل تدمير الواقع واعادة بنائه .

ان بيروت لم تكن هي التي نضج عليها الشعر الحديث . كانت فقط ، جسرا للتواصل العدائي